دراما المشروع: مساحة تعلم
تجربة «حكاية الناس وشجرة الزيتون»

محمد الخواجا

محمد الخواجا.

أرى أن الشكر هو جزء من المشروع، لذلك أقدم الشكر لكل مربيات الطفولة على انخراطهن في مشروع «**حكاية الناس وشجرة الزيتون**» وما حققنه من إنجازات بشكل عام، وشكراً خاصاً للمربيتين وهيبة حسين وخولة ريان من روضة السلام في بيت دقو، اللتين انخرطتا معنا في مشروع التكون المهني عبر المجاورة الذي سأركز عليه بالحديث والتأمل، لأني أعرف جيداً كم من الوقت والجهد قد بذلا حتى وصلنا إلى هذه المرحلة، وبالمقابل أعرف حجم التغيير الذي أحدثه المشروع على صعيد الروضة والأطفال والمربيات.

في البداية، وقبل الشروع في وصف مشروع «حكاية الناس وشجرة الزيتون»، الذي نفذ ضمن مشروع التكون المهني عبر المجاورة، وبُنِيَ على تجارب ومشاريع سابقة انخرطت فيها المربيتان وهيبة وخولة، فإنني سأشير إلى أحد تلك المشاريع الذي تمحور حول تربية الحيوانات والعناية بها، وقد لبّى المشروع الكثير من منهاج الروضة وموضوعات التعلم فيها.

تعلم الأطفال خلال هذه المشروع الكثير من المعارف والفهم حول الحيوانات وأنواعها ومسكنها، وتعلموا أيضاً حول قضايا إنسانية وحياتية من نوع المسكن، والملبس، والعلاج، وأنواع البيوت، وأحجامها. وقد تمكنت المربيتان خلال ذلك من تطوير قدراتهن في تعليم متعدد الأهداف، ويوظف لغايات كبرى من نوع خلق التواصل بين الأطفال والمجتمع والمدرسة والأهالي، وتطوير القدرة على التعبير، وتحمل المسؤولية، وحل المشكلات.

ضمن هذا التوجه، جاء المشروع الحالي (**حكاية الناس وشجرة الزيتون**)، الذي تم العمل عليه من منتصف شهر شباط 2015، وتم فيه بناء التعاقد مع المعلمات المشاركات في المشروع ممن لديهن الخبرة في بناء مخططات عباءة الخبير، إلى جانب معلمة أخرى ليس لديها أي معرفة في هذا المجال، وكان هذا أهم أهداف المشروع؛ أن يتبادلن المعلمات الخبرة، وأن يكون لدينا رياض أطفال تتبع نهج عباءة الخبير في التعليم.

وفي التأمل هذا، سأركز على ثلاثة محاور ارتكز عليها مشروعنا، وتلخِّص أهدافه الرئيسية، وهي:

سأنطلق من مقولة وهي أن المدرسة الجيدة هي التي تجد فيها معلماً يجلس مع معلم، معلماً يسمع تجربة معلم، معلماً يخطط مع معلم آخر، معلماً يتأمل عمل معلم آخر.

هذا هو جوهر عملنا في مشروع الطفولة؛ أن نفتح مساحة للمعلمة التي لديها خبرة في الدراما وعباءة الخبير، لتشارك معرفتها مع زميلتها في الروضة، وتجلسان معاً للتخطيط والتفكير والتحضير والتطبيق، ومن ثم تتأملان العمل سوياً.

وأستند هنا إلى ما قالته وهيبة حسين: "أول ما انخرطت وشاركت في مشروع الطفولة، أكثر شيء أزعجني وشكّل لي صعوبة كبيرة، أن أخطط مع معلمة أخرى، لكن خلال التنفيذ وجدنا العكس، خططنا معاً ونفذنا معاً، وضِعنا معاً، وحاولنا أيضاً أن نجد الحلول معاً".

هذا هو المشروع القادر على تغيير معلمة، وعلى تغيير روضة، وبالتالي تغيير مجتمع. إذ يستطيع هذا النوع من المشاريع خلق سياقات من التعليم والتعلم، ويستطيع جعل المربيات يعملن معاً وكأنهن في مختبر تربوي.

والمقولة الثانية سأستند فيها إلى هلتون:[1] الأطفال كأناس الآن والطفولة هي وقت بحد ذاته وليست وقتاً للتحضير. معنى ذلك أننا ونحن نعمل مع الأطفال، عادة يكون في تفكيرنا أن نحضر الطفل فقط لسن البلوغ، وبالتالي نعمل على بناء سياقات من التعليم فقط تخدم فكرة تحضر الطفل لسن البلوغ. وحسب هلتون يجب أن أقدم تعليماً غنياً ومختلفاً للأطفال في الوقت الحاضر.

ولهذا، في مشروع الطفولة (التكون عبر المجاورة)، نقدم تعليماً مختلفاً للأطفال، تعليماً عبر أشياء يحبونها، كي نستطيع خلق انتماء وانخراط عميق لنا وللأطفال في المشروع، ويبقى في ذهن المربية دائماً سؤال كيف يحب أطفالي أن يتعلموا؟ وما الأسلوب الذي يجب أن أعمل به؟ ولهذا، دائماً ما نرى المربيات يغيرن ويتغيرن عبر المشروع في طريقتهن وأسلوبهن.

خولة ريان معلمة في المشروع، وهي معنا في المشروع من عامين، تقول: «طوال عمري كنت أفكر أنه كلما رفعت صوتي في الحصة، فإنها ستكون أفضل، لكني خلال المشروع اكتشفت العكس، أن الصوت المنخفض قادر أكثر على جذب انتباه الأطفال».

وهيبة، في إحدى تأملاتها، تقول: «في البداية كنت أقف في منتصف الصف، اليوم أجلس مع أطفالي على الأرض وهذا ما يحبونه، لأنهم يشعرون بأني مثلهم ونتعلم معاً».

جون ماثيوس يقول: أفضل المعلمين هم الذين يرتبطون بالأطفال الصغار كمتعلمين صغار، فالمعلم رفيق بالغ للطفل.[2]

المقولة الثالثة[3] «الروضة كمكان يجب أن يشعر الأطفال فيه أنهم في بيتهم الثاني، وبيتك هو المكان الذي يربطك فيه شعور نفسي؛ صورتك، ذكرياتك، أحلامك، المكان الذي لك فيه صلة، يصبح جزءاً منك وأنت جزء منه».

وغالباً ما يدفعني هذا الموضوع لأتذكر طفولتي، أتذكر مدرستي في سياق ما شاهدته في مدرسة ودروو في المملكة المتحدة، عدت أتذكر ونحن أطفال كيف كنا نخرج من المدرسة عندما تنتهي الحصة الأخيرة، كان وقتها الدوام ست حصص مدرسية، وشارع المدرسة كان طويلاً باتجاه البلدة، ترى الطلاب في الشارع كلهم وهم يركضون باتجاه بيوتهم، وكأن «أحداً يطاردهم بعصا»، لم أكن أعرف السبب حينها، عندما ذهبت إلى مدرسة ودروو، أدركت كم تختلف المدرسة هناك في تفكيرها وطريقة تعاملها مع الأطفال، فقد يصممون سياقات تعلم يرتبط من خلالها الطلاب بالمدرسة، لأن المدرسة تحقق لهم رغباتهم وحاجاتهم، الموسيقى والرسم واللعب والأكل والتعليم والأفلام معاً، المدرسة استطاعت استحضار البيت والأهل والشارع في سياق مشروع تعليمي.

في هذا المشروع نحاول معاً، نحن والمربيتان، أن نجعل من الروضة مكاناً يجذب الأطفال، مكاناً يحبونه وينتمون إليه، وتصبح عندهم مسؤولية اتجاهه.

مربيات رياض الأطفال خلال مشاركتهن في اليوم الدراسي الذي عقده مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.

ضمن هذه الطريقة، استطعنا أن نرى قصة الطفلة «هبة»، وهي قصة من بين عدد كبير من القصص التي بين أيدينا. فالطفلة هبة أصبح المشروع جزءاً منها، وهي جزء منه. هبة صارت تشعر أن هذا المشروع مشروعها. أصبحت تستطيع أن تصنف الصور وتتحدث عنها لأمها وللمربية، أصبحت تستطيع أن تعبر عن مشاعرها، عن الأشياء التي تعلمتها في المشروع، وتقول: هذه صورتي، وهذا البروشور من تصميمي، وبالتالي هذه روضتي. وهذا التعليم هو القادر على البقاء.

ولهذا، معلمة المدرسة تقول لوهيبة: كيف علمتِ وحدة المغناطيس؟ عندي أطفال في الروضة حتى اليوم ما زالوا يملكون ما تعلموه.

وأيضاً هذا التعليم نفسه هو الذي جعل مربية مثل خولة ووهيبة، ترى طلابها أكثر، تلاحظهم، تتبنى وجهة نظرهم، وتطور قدراتهم، وتوثق كلماتهم، وبالتالي اختلف دور المربية وصار دورها دفع أطفالها إلى البحث والتساؤل والتخطيط.

كوثر البرغوثي أيضاً، مركزة في المشروع للسنة الأولى، في تأملاتها كتبت: «صرت أصحو الساعة الثالثة صباحاً، أحضر الأكل لأولادي، لأن عندي لقاءات مع المعلمات في «القطان»، صارت أكثر الكلمات على لساني «القطان»، مشروع، مجاورة، وأصبحت أعيش مع هذه الكلمات وأنا جالسة مع زوجي، ومع أولادي، مع زميلاتي في المدرسة، وأفكر دائماً في كيفية تطوير المشروع وإنجاح الفكرة».

وفي ما يتعلق بانفتاح الروضة على المجتمع؛ ففي كل المراحل التي كنا نخططها نحن والمعلمات، كنا دائماً نفكر كيف نخلق حواراً مع الأهالي في المشروع، كيف نجعلهم جزءاً منه. ولهذا، في كل مرحلة من مراحل مشروعنا، نرى دوراً للأهالي؛ في تصميم البروشور، والشعار الخاص بمشروعنا ومؤسستنا، عبر حوار مستمر بين المربية والطفل والأم.

كذلك عندما بدأنا التفكير في معرض صور لرسومات الأطفال عبر المشروع، كان تفكيرنا في الأهالي، ووجهنا دعوة لهم كي يحضروا للروضة ويسمعوا من أولادهم تجربتهم في المشروع، عبر صورة على الحائط، وبالتالي كتابة قصة الصورة والمشروع من قبل الأم وطفلها. لقد كانت فرصة كبيرة أمام الأمهات كي يسمعن أولادهن، ويصبح لديهن فهم أعمق عنهم ولهم.

أعتقد أن روضة تتواصل مع محيطها وتكون ناشطة فيه، ستؤثر في الأطفال وتجعلهم يحملون قصصهم وتجربتهم وأسئلتهم إلى بيوتهم، ثم يعودون إلى الروضة مع أمهاتهم وآبائهم يسألون معاً، ويطورون العمل ويختبرون أفكارهم.

هذا ما أنجزناه داخل هذا المشروع الذي نقدمه اليوم كنموذج للتعليم المستقبلي الذي نتخيله ونعمل لأجله.

معلم، ومنسق مركز المعلمين/نعلين

الهوامش:

1 بانكروفت، سوزي وأخريات (تحرير). (2014). **بحث في أطفال يستقصون العالم: 5×5×5=إبداع**، ترجمة: عيسى بشارة، رام الله: مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ص 31.

2 المرجع السابق، ص: 32

3 من تأملات الباحث مالك الريماوي في إحدى الورش.

جانب من النقاش الذي دار بين مربيات رياض الأطفال في اليوم الدراسي الخاص بالطفولة المبكرة.